

لبعض الرفاق صهيل الجياد

في وداع حارس ثقافة البحرين العربية علي عبدالله خليفة



ليس هناك أقسى على المرء من أن يفقد صديقاً عزيزاً يحبه ويقدره. وليس هناك خسارة للوطن أكثر فداحة من أن يفقد مبدعاً ومثقفاً كبيراً يعبر عن وجدانه الوطني، وحارساً أميناً على ثقافته الوطنية.

كان الرحيل الصادم المفاجئ لعلّي عبدالله خليفة مؤلماً أشد ما يكون الألم لي شخصياً إذ فقدت واحداً من أحب وأعز الأصدقاء.

خسارة البحرين وثقافتها الوطنية برحيل علي عبدالله خليفة خسارة لا تعوض بعد كل ما أبدعه وما قدمه عبر عقود.

حارس الثقافة

عرفت علي عبدالله خليفة على المستوى الشخصي منذ أكثر من أربعين عاماً. عبر هذه العقود توثقت علاقتي به كصديق عزيز. لم يكن يمضي أسبوعاً أو أقل إلا وتحدث ويكتب لي أو أكتب له.

كان تقديري الكبير لعلّي عبدالله خليفة ليس فقط بسبب خصاله الشخصية النبيلة التي يعرفها حتماً كل من عرفه عن قرب، لكن أيضاً لأنه كان بالنسبة لي نموذجاً للمثقف الفاعل المؤثر.

لم يكن علي عبدالله خليفة من نوع المثقفين الذين يتفلسفون ويترثرون كثيراً من دون أن يفعلوا شيئاً، وما أكثرهم. ولم يكن من نوع المثقفين الذين يهتمون فقط بالمجاملات والكلام الإنشائي الذي لا يقدم ولا يؤخر.

علي عبدالله خليفة قضى حياته كلها يعمل ويعمل من أجل الثقافة الوطنية عموماً والشعبية خصوصاً. أنشأ مؤسسات وأصدر مجلات وعقد مؤتمرات.. إلخ وجعل للثقافة الشعبية البحرينية حضوراً عالمياً.

سبق لي أن وصفت الشاعر الكبير علي عبدالله خليفة بأنه «من أكبر حراس الثقافة الشعبية في الوطن العربي». وكتبت عنه وعن دوره في هذا المجال ما يلي: «ما قدمه للثقافة الشعبية العربية عبر عقود يحتاج إلى صفحات طوال للحديث عنه. يكفي أن نشير هنا إلى أن الثقافة الشعبية تعتبر الشغل الشاغل لعلّي عبدالله خليفة منذ أن كان طالباً في الثانوية في ستينيات القرن الماضي.. منذ ذلك الوقت المبكر، لم تتوقف جهود علي عبدالله خليفة الهائلة في خدمة الثقافة الشعبية العربية. وكان أبرز محطات إسهامه تأسيسه مركز التراث الشعبي لدول الخليج العربية عام 1982 وتولي إدارته، وإصدار مجلة «المأثورات الشعبية» الشهيرة. وآخر محطات إسهاماته تأسيسه وإدارته إدارة البحوث الثقافية بالديوان الملكي عام 2001، وتأسيس «أرشيف الثقافة الشعبية للدراسات والبحوث والنشر»، وإصدار المجلة البديعة، مجلة «الثقافة الشعبية». وتوج جهده علي عبدالله خليفة بانتخابه رئيساً للمنظمة الدولية للفن الشعبي عن جدارة واستحقاق».

هذه بعض جوانب إرث علي عبدالله خليفة. حين حصل على جائزة التميز الإبداعي في الإنجاز الثقافي العالمي لعام 2024، من مركز دراسات التراث الشعبي بجامعة «مسينا»، إحدى كبريات الجامعات الأوروبية في الجنازة الإيطالية، ذكرت اللجنة التي منحتها الجائزة حيثيات منحها له بالقول إنها جاءت لتميز أعمال الشاعر علي عبدالله خليفة البحثية وجهوده الموقفة لأكثر من خمسين عاماً في مجال حفظ التراث الشعبي لبلاده، ووصله بمنجز التراث الثقافي غير المادي بالعالم والثقافة الشعبية والتراث الشعبي على الأصدقاء البحرينية والعربية والعالمية. كما حرصت على التنويه بجهوده الكبيرة على الصعيد العالمي في مجال الثقافة الشعبية والتراث الشعبي.

الوصية الوطنية

قبل فترة ألقى علي عبدالله خليفة محاضرة مهمة في الجامعة الأهلية بعنوان «التراث الشعبي الخليجي: ظروف التجربة والمآل». حرصت في ذلك الوقت على الكتابة عن المحاضرة التي تضمنت ما يمكن اعتباره وصية وطنية لعلّي عبدالله خليفة وقلت: في المحاضرة تحدث عن دوره في مجال الحفاظ على التراث الشعبي الخليجي، ولفت الأنظار إلى مسألة خطيرة. قال إن إرث التراث الشعبي الخليجي فقد الجانب الأكبر منه



بقلم:

السيد زهره

قسم اللغة العربية بجامعة البحرين جمعوا مرويَات 1200 راو وراوية تتراوح أعمارهم بين 50 و82 سنة من مواطني مملكة البحرين من مختلف الأجناس.

هذه الموسوعة مثال رائد لما يجب ويمكن عمله في مجال حفظ وتوثيق التراث الشعبي البحريني بأسلوب علمي وجهدي جماعي.

عموماً، دعوة علي عبدالله خليفة تنبيه إلى أنه في الجدل الحالي حول الهوية الوطنية البحرينية، فإن أي مبادرة في هذا الخصوص لا بد أن يمثل الاهتمام بالتراث الشعبي ركناً أساسياً من أركانها.

ثقافة البحرين تستحق

ثقافة البحرين الوطنية ثقافة عريقة ترسخت معالمها عبر مئات السنين. هي ثقافة ثرية تنسم بالتعددية والتنوع واحتضان كل الثقافات والحضارات في العالم. لهذا تجسد ثقافة البحرين أرقى القيم الإنسانية.. قيم احترام الآخر واحترام الإنسان والتعايش والتسامح والتعدد.

جلالة الملك حمد بن عيسى آل خليفة دائم التنبيه إلى ضرورة الاهتمام إلى أقصى حد بالثقافة الشعبية البحرينية باعتبارها تعبيراً عن جوهر الهوية الوطنية البحرينية وإبراز القيم النبيلة التي تجسدها وتحضنها. وجلالة الملك ترجم هذا الاهتمام بالثقافة البحرينية وقيمتها في شكل مبادرات عالمية رائدة مشهودة أطلقها جلالتهم للتعايش السلمي وحوار الحضارات والأديان والمبادرات الإنسانية. من المفروض أن نسرد أن ثقافة البحرين الشعبية تمثل قوة ناعمة هائلة للبحرين. يعني هذا أن النهوض الثقافي في البحرين وتشجيع المثقفين البحرنيين وإبداعاتهم هدف يجب أن تكون له أولوية كبرى في العمل الوطني وفي الاهتمام الرسمي.

ويعني أنه يجب أن تكون هناك خطة للنهوض الثقافي ولتعزيز الحضور الثقافي البحريني في العالم دعماً لقوة البحرين الناعمة. وحضور المثقفين في المشهد العام الوطني يجب أن يكون أكبر من هذا.

لبعض الرفاق

قبل أشهر حين أراد علي عبدالله خليفة أن ينشر قصائده اختار «أخبار الخليج»، واتصل بي وقلت له إنه يشرفنا أن ننشر قصائد شاعر كبير مثلك.

خصصنا له زاوية أسبوعية لنشر قصائده، وكان له صدى كبير لدى القراء إذ كانت -كما هي عادته- قصائد بديعة.

كان سعيداً جداً بردود الفعل التي يتلقاها من القراء على قصائده، وكان يكتب لي أن ردود الفعل هذه أكدت له أن الشعر مازال له قراء ومحبون.

في إحدى المرات حين كتبت عموداً عنه وعن دوره، أرسل لي على سبيل الشكر قصيدة له بعنوان «لبعض الرفاق». لم أكن قرأتها من قبل، وقد هزنتني القصيدة وتأثرت به جداً. قلت له في مكالمة هاتفية: أستاذ علي، حين أموت أريدك أن تنشر قصيدة «لبعض الرفاق» في رثائي. قال أطل الله في عمرك.. من يديري ربما تنشرها أنت في رثائي.

وشاءت إرادة الله، التي لا راد لها، أن يرحل علي عبدالله خليفة إلى جوار ربه، وأن أُنشر القصيدة في وداعه وفي رثائه. اقرأ عزيزي القارئ القصيدة وستدرك أن ما قاله فيها يسجل موقعه هو بالذات في الذاكرة الوطنية البحرينية.

لبعض الرفاق

لبعض الرفاق صهيل الجياد

وحقق جناح النسر إلى القمم العالية

لبعض الرفاق أغاريد حب تفيض حنوا

ويسمو بها في الزمان الحنين

لبعض الرفاق

انتعاش نسيم

يهب على شجر عامر في الفؤاد

لهم مكن دافئ

في الحنايا ..

لهم وهج النجم

في رقة الذاكرة.

لبعض الرفاق يد ساجرة

إذا ما التقينا تحس بكل العروق

بها نابضة

ويلقاك بالود وجه تشع به الروح

مستبشرة.

لبعض الرفاق، وإن غادروك

ظلال تفيء عليك، وتبقى لهم

تلکم الألف النادرة.

لبعض الرفاق ومن بعضهم وردة

لا يطال شذاها الذبول

ومن بعضهم شجر ضارب

مد ما بينهم في الجذور

وراح يعمق حتى الأفاصي

ليعطيك من وهج الروح

شيئاً يعز

وما كنت يوماً إليه تقول